مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد:08./ العـدد 01جوان (2024)، ص 333-344

سرد الذاكرة واشتغال المتخيّيل في رواية كريسماس لأحمد خيري العمري

Exploring Memory and the Poetics of Imagination in Ahmed Khairy Al-Omari's Novel "Christmas"

نسيبة مساعدية
Messaadia.noussaiba@univ-khenchela.dz
جامعة عباس لغرور-خنشلة
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/04 تاريخ القبول: 2024/03/20 تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص:
تكتنز الذاكرة على كل ما يتصل بصاحبها من أحداث وخبرات ومشاعر ماضية، يتم استدعاؤها من حين لحين حسب الحاجة بوعي، أو تتوالد خيوط الماضي بعنف فتقض مضجع الإنسان دون وعي، وبين تناقضات حضورها اللحظي فهي توقظ مشاعر مقبوعة داخل الإنسان، ولما يلجأ الروائي لذاكرة الفردية أو الجماعية فهو ينبش أديمها من الزمان والمكان الحاضرين إلى الماضي بكل حمولاته وأبعاده، ويبدأ بمراوغة القارئ بمغامرة جمالية تجمع بين عملية إعادة تشكيل التسلسل السردي وتأثيث مسار سردي متخييل، فتنساق الرواية وتبدأ ولادتها بين تسريد الذاكرة وبناء المتخييل.
تروم هذه الورقة البحثية الإمساك بمكامن تمازج الذاكرة والمتخيل في رواية كريسماس، من خلال الإجابة على الإشكال التالي: كيف شكل أحمد خيري العمري فضاءات الذاكرة والمتخيّل في رواية كريسماس؟
كلمات مفتاحية: تسريد، ذاكرة، متخييل، تمظهرات، كريسماس، انسجام.

Abstract:
Memory, as a reservoir of past events, experiences, and emotions, influences an individual's consciousness, occasionally surfacing consciously when needed, or subconsciously manifesting through intrusive thoughts that disrupt one's sleep. Amidst the contradictions of its fleeting presence, memory unveils latent emotions within an individual. When novelists turn to personal or collective memory, they excavate its layers, transcending the boundaries of present time and space, delving into the burdens and dimensions of the past.
Through this process, they engage readers in an aesthetic journey that reconfigures narrative sequences and constructs imaginative pathways. This research paper endeavors to unravel the interplay between memory and imagination in Ahmed Khairy Al-Omari's novel "Christmas." By addressing the formation of memory and imagination within the novel's narrative spaces, we seek to answer the following questions: How did Ahmed Khairy Al-Omari craft the interwoven realms of memory and imagination in the novel "Christmas"?
***Keywords**: narration, memory, imaginary, manifestations, Christmas, coherence..*

- مقدمة

إنَّ التماهي الحاصل بين فنيات ومكونات الرواية في عصر ما بعد الحداثة، أسفر عن اختلافات معرفية هائلة أثمرت عن مقاربات ومطارحات تحيل إلى الكثرة والغموض والتعدد، في جانب هام منه يعد ثراء في مجال الرواية، وولادة العمل الإبداعي الروائي تحتضنه لحظات مخاض متفاوتة بين استذكار ما كان قبلا، أو الارتماء في أحضان

الخيال، فتكون الرواية مخصوصة لتلك اللحظة صرف، أو تتجاوز ذلك وتجمع ما بين نبش تفاصيل الذاكرة والبناء السردي المتخيّل، فيكون للروائي منفذ على عوالم إبداعية متناسلة من إعادة تنشيط الذاكرة وانسامجها مع عالم الخيال.

رواية كريساس تجمع بين فضاءات سردية متباينة، تنشطر إلى مسارب ومسالك تلتقي حينًا، وتفترق حينًا آخر، جزء منها يروي حيوات شخصيات متخيّلة ويضع لها أسماء أيقونية تكشف عن مسارها السردي بين دفتي الرواية، تلك الشخصيات أوكل لها مهمة التعريف عن نفسها وأحلامها وواقعها وماضيها ومستقبلها مستقلة عن الشخصيات الأخرى، فنجد ميادة وسعد وحيدر ومريم، لكل منهم عالم خاص يتنزل في منطقة تخوم فاصلة وواصلة بين أنا/ نحن، وكان ذلك على مدار صفحات الرواية، في جهة مقابلة نجد الذاكرة التاريخية مفترشة لجانب جلي من بياض الرواية من خلال الشخصية الحدث أحمد المستنصر بالله بن الخليفة الظاهر زمن الدولة العباسية، يقول أحمد خيري العمري عن شخصياته في الرواية «الشخصيات المعاصرة في الرواية خيالية، ميادة موجودة في نساء كثيرات، لكن شخصية ميادة الباقر خيالية، كذلك الأمر بالنسبة لمريم وسعد وأحمد عبد الرحمن بكر آغا وحيدر الباقر، أحمد المستنصر بالله ابن الخليفة الظاهر شخصية حقيقية»[1].

يوضح أحمد خيري العمري أن طبيعة شخصيات رواية كريساس هي بين الحقيقة التاريخية والتوظيف المتخييل؛ لينير ذهن القارئ بهدوء -في آخر صفحة من الرواية-، فلم يُرد مزاحمة أفكاره وتوقعاته، فتركه يرتحل معه من شخصية إلى أخرى ومن عالم إلى آخر بحرية، دون فرض رؤية أو فرضية مسبقة عن العمل مدججة بكم هائل من المعطيات السياقية، وفي هذه الورقة البحثية سنتقصى آليات ومسارات تزاوج الذاكرة مع المتخييل في رواية كريساس.

1.انسحاب السرد نحو الماضي

ذكرنا سابقا أن الرواية استقلت شخصياتها بصفحات معنونة باسمها، تجعلنا نغوص معها بشكل فردي ثم جماعي لنجمع شتات مساراتها السردية، وتلك الشخصيات متناوبة بين حقيقية ومتخيَّلة، أحمد شخصية حقيقية وُجدت في الدولة العباسية ببغداد، أول ما يطالعنا لحظة مباشرتنا قراءة أوراق الرواية عنه، أنّ الروائي يذكر بداية الحدث التاريخي «بغداد 656هـ-1258ميلادية»[2]، أعطى الإشارة الأولى للقارئ كي يعرف أنه أمام سرد تاريخي «صياغة الحبكة تميل إلى تغليب حدود تقلبات التاريخ على الدلالات المُباينة للأحداث المروية»[3]، وأن رواية كريساس في جانب منها سفر إلى عهد الدولة العباسية بالضبط بداية سقوطها على يد التتار، شيئا فشيئا نسافر مع الروائي إلى تلك الحقبة والتعرف على حيثياتها، وكل الأحداث التي أنهت الخلافة الإسلامية العباسية من خلال شخصية أحمد المستنصر بالله ابن الخليفة الظاهر، «فحياة البشر تُدرك على نحو أسهل وأمتع حين يجري تمثيلها بالتخيلات التاريخية»[4]، لتكون شخصيته في الرواية محمّلة بكثير من مسوغات القراءة التأويلية.

يسرد الروائي ماضي شخصية أحمد في الرواية بأسلوب سلس دون تعقيد، ويوضح تفاصيل حياته ليكون القارئ مستعدا لتلقي باقي أخبار قصة أحمد ووقائع سقوط بغداد، «ماذا فعل الخليفة؟ قلت وأنا أفكر بطلب هولاكو من المستعصم أن يتنازل عن الخلافة لابنه، هل يمكن أن تدور الدوائر بحيث أكون أنا من تستقر عليه البيعة؟ ليس لي عداوة مع أحد، ولم أحارب التتار، أنا بين سجن المطبق وسجن القصر منذ سنوات طويلة، منذ أن قرر ابن أخي أني خطر على ملكه وأني قد أطمع بالخلافة»[5]. في هذا المقطع السردي ذكر لوضعية الشخصية أحمد القابعة في السجن وكذا سبب مكوثها فيه لأجل غير معلوم؛ تخوف الخليفة منه على حكمه، ثم يستذكر الروائي قصة سقوط بغداد في يد التتار من خلال الأحداث المحيطة بالشخصية أحمد، نستشعر أننا أمام رواية تاريخية «إنها رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات»[6].

ويتبدى لنا من سطر سردي إلى آخر ما حدث لبغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وكيف ضاع ذلك المجد والعز في تسارع رهيب للنكبة، يقول الروائي على لسان إسحاق:«وأنتظرت أن يزورني إسحاق كعادته أول جمعة من كل شهر، يأتي لي بما أحتاج ويخبرني بما يدور، لكنه لم يأت" التتار يحاصرون بغداد مولاي" قال إسحاق بصوت من يريد أن يمهد لي خبرًا سيئًا" التتار؟ يحاصرون بغداد؟كيف؟آخر ما أعرفه أنهم كانوا في همدان كيف وصلوا إلى بغداد؟»[7]، ويواصل إسحاق التفصيل في مجريات دخول التتار إلى بغداد، لنكون بمعية أحمد في مقام واحد، نستقبل الأخبار وننظر في الأمر بكثير من الدهشة والخوف، دولة عظمى كبغداد تسقط معقول سقوطها بذلك الشكل؟!!! «تسارعت الأمور

بعدها يا مولاي، أرسل هولاكو إلى ابن أخيك الخليفة المستعصم يطلب منه أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويتنازل عن الخلافة لابنه، وأن يأتيه بنفسه إلى همدان ومعه الوزير مجاهد الدين أبيك وسليمان شاه، لكن الخليفة رفض كل ذلك، وأرسل له رسالة تحذره من الهجوم على بغداد، وعندما خرج رُسُل هولاكو من بغداد، تعرض لهم العامة بالشتم والضرب، ويبدو أن هذا قد عجل من قرار هولاكو بالزحف إلى بغداد»[8].

تسهم تلك التفاصيل التاريخية -التي عمد الروائي إلى تذكرها بالعودة إلى كتب التاريخ لنقل وقائع ماضية- في إحياء جزء من الذاكرة الفردية لشخصية أحمد والجماعية لجمهور القراء، فكما يعتبر العلامة ابن خلدون بأن التاريخ «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس بالعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»[9]، فكل مقطع سردي خاص بشخصية أحمد كان له دور في التعريف بوقائع سقوط بغداد وتوصيف حال العبّاد إبّان زحف التتار وتمكنهم أخيرا من بسط حكمهم على بلاد العراق، فعملية تسريد التاريخ«جعلت منها نصًا تسجيليًا للتاريخ رفد التاريخ الحقيقي بمادة متخيلة تحكي فنيًا أحداث التاريخ عبر ترتيبها وتأويلها، حكايات تخترق الروايات الرسمية للتاريخ»[10].

ويستمر الروائي في إمدادنا بكم هائل من المعطيات التاريخية، حتى تستقر في أذهاننا صورة فعلية عن شخصية أحمد المستنصر بالله وكذا عن حال البلاد والعباد آنذاك، «من يصدق بعد كل هذه السنوات، يبدو الحبس هو أفضل ما حدث لي، هو الذي أنقذني من الذبح على يد التتار...وهو الذي يوصلني اليوم للخلافة...طيلة سنوات حبسي العشر، لم أفكر لحظة واحدة أن الدوائر ستدور بحيث تأخذني إلى سدة الخلافة، كنت أطمع بأن يعفو عني ابن أخي، أن يقتنع بطريقة ما أن الأخبار التي وصلته عن مطامعي كانت مزيفة، رغم أنها لم تكن كذلك تماما..»[11]، في هذا المقطع وضح لنا الروائي الفترة التي دام فيها سجن أحمد المستنصر بالله، وأنه تحرر من آسره بسقوط بغداد، كما نفهم من الحوار الداخلي لأحمد بأن سجنه تحول من محنة إلى منحة ربانية له، تمكن من الخروج والتحرر من قيد السجن وضغوطات الخليفة.

في السياق ذاته أورد الروائي-أحمد خيري العمري- مجموعة من الشواهد التاريخية التي اقتصها من بحثه في كثير من المصادر التاريخية جاءت على ذكر أحمد المستنصر بالله، فأحال على المصدر والصفحة المأخوذ منها، نحو: ما كتب في "تاريخ الخلفاء": «المستنصر بالله: أحمد أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد، قال الشيخ قطب الدين: كان محبوسًا ببغداد، فلما أخذت التتار ببغداد أُطلق فهرب»[12]، وأخذ عن كتاب" سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل" قوله: «وكان ممن نجا من سيوف التتار من بني العباس أبو العباس أحمد بن الظاهر عم المستعصم المقتول، قيل كان محبوسا ببغداد فلما أخذت التتار بغداد أُطلق فهرب»[13]، ومن كتاب"التاريخ المعتبر في أنباء من غبر" «وفي سنة تسع وخمسين وست مئة، في شهر رجب، قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسمر اللون، اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر»[14]، إضافة إلى ذلك سجل بعض ما جاء في كتاب"المختصر من أخبار البشر": «ولقب بالمستنصر بالله، أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس والخلافة»[15].

وجميع الإحالات التي استند عليها الروائي في بناء قصة شخصية أحمد في الرواية، كانت تشد وثاق القارئ لمعرفة المزيد عن خبايا أحمد وبغداد تحت حكم التتار، وتلك المستندات التاريخية لم يكن يرمي منها التركيز على الجانب التاريخي خلال توجيه السرد نحو الماضي « فالتاريخ لا يهم الروائي بوصفه موضوعا للوصف والتشهير والتفسير، لأن الروائي ليس خادمًا للمؤرخين، وإذا كان التاريخ يسحره، فذلك لأنه مثل مصباح كشاف، يدور حول الوجود الإنساني، ويُلقي ضوءا عليه، وعلى امكاناته غير المتوقعة، التي لا تتحقق وتظل غير مرئية ومجهولة في الفترات الراكدة عندما يكون التاريخ ساكنًا»[16]، بمعنى هو سلط الضوء على شخصية حدث تفتح الطريق وتعبده أمام القارئ ليكتشف المعادلات الموضوعية لها وإسقاطاتها وتأويلاتها المتجاوزة حدود وزمكان سقوط بغداد، فالماضي كان مادة دسمة في تشكيل البناء السردي في رواية كريساس.

2.انفتاح الذاكرة على المتخيّل

تفنن الروائي أحمد خيري العمري في رسم خيوط لوحة سردية يمتزج فيها عنصري الذاكرة والتخييل، تمازجًا سلسًا من غير تصنع أو محاولة اقحام أحدهما دون حاجة، فمثلا شخصية أحمد المستنصر بالله هي من الذاكرة التاريخية، أما من اختاره الروائي مساعدا له فكان إسحاق شخصية متخيّلة، وكان هذا فيما اعترف به الروائي في آخر صفحات الرواية، حينما بدأ بتوضيح الشخصيات الحقيقية والمتخيّلة؛« إسحاق شخصية خيالية»[17].

جعل الروائي إسحاق مساعدا له في نسج رؤية سردية تجمع بين الذاكرة والمتخيّل، إسحاق كان ملازما لأحمد المستنصر بالله، وهو عينه التي ترى، وأذنه التي تسمع، كان حريصًا على حياته ومذللا الصعّاب في طريق المستنصر نحو الحرية «ولما كان التخييل والتاريخ ينتميان معًا إلى مملكة للسرد، صارت أشكال التبادل بينهما ميسورة نسقيًا، وسيبقى على سيرورة الاستيعاب المتبادل أن تعمل على تكييف سياق التلقي مع القابلية النسقية، حيث يكون بإمكان مواد الرواية أن تستقبل مواد تاريخية لتشييد كيان سردي دال فنيًا»[18]، لذا جمعت المقاطع السردية بين التخييل والذاكرة.

أسهمت المزاوجة بين الذاكرة والمتخيّل على تنشيط ذهن القارئ للامساك بمكامن الرواية، وجعله يعيش الماضي والحاضر والمستقبل، ويستشعر التناقضات والمشاعر المضطربة، «أطرقت وأنا عاجز تماما عن التفكير، كل هذه الأنباء دفعة واحدة، ليته كان كابوسًا...

"مولاي"..قال إسحاق بصوت يحاول أن يكون قويًا.

نظرت له، ماذا هناك أكثر من الذي قاله.

"أنت يا مولاي في خطر أكثر من أي وقت مضى، لو أن التتار قتلوا الخليفة المستعصم ومن معه، فقد تكون أنت أكثر الناس قربًا وأهلية لتولي الخلافة، وهذا يجعلك في خطر، من المنافسين على تولي المنصب، ومن التتار...أو ممن يطمع بأخذ الخلافة من آل بني العباس»[19].

الموقف الذي وجد أحمد نفسه أمامه ما كان له أن يمر بسلام، دون صحبة إسحاق ودعمه له، فقد كان إسحاق دائم الزيارة لأحمد في سجنه، ويأمل معه في الخروج من السجن، فكان ينقل له أخبار الدولة ويشحنه بأمل الحرية، والصبر على ظلم الخليفة وقسوة الأسر، فعند سماع أحمد لأخبار محاصرة التتار لبغداد، وتهاوي قوة الحكم العباسي، بدأ يتشاور مع إسحاق حول وضعه، فقال له:« ماذا ترى يا إسحاق؟ أين أكثر الأماكن أمنًا؟

السجن، أن تبقى هنا في السجن، لو صدق حدسي، فعندما تعم الفوضى، ستُكسر السجون ويهرب السجناء، لن يكترث أحد للسجن...ولن يدخل أحد لنهبه...ابق هنا، لا داعي لتذكير الناس بك، ربما يشي أحدهم بك لو رآك، انتظر ريثما يستبين الأمر، بعدها يمكن أن نتدبر أمر خروجك.

كم من المضحكات مبكيات، أن يكون السجن هو ملاذي الآمن، وأنا الذي أتوق للحرية منذ عشر سنوات، رغم ذلك ما قاله لم يُجانب الصواب»[20]، أشار إسحاق على أحمد بالبقاء في السجن لغاية وضوح الرؤية في قادم الأيام، وهكذا ظل إسحاق يتردد على أحمد ويتباحثان في سبل النجاة من بطش التتار، مع إضافة الروائي عناصر فنية تشويقية تزيد حماسة القارئ وتثير شغفه لمعرفة ما حدث وما سيحدث لنعتبرها« أتُون ينصهر فيه العنصر التاريخي مع عناصر أخرى، تسهم جميعًا في بناء الكون التخيلي للرواية»[21].

ويسرد لنا الروائي على لسان أحمد« كان إسحاق أخًا لي في الرضاعة، أمه مولاة تركية لأمي وأبوه مملوك رومي لها، بقينا ونحن صغار، وأعتقهم جميعًا عندما كبرت قليلاً فزادهم ذلك ولاء وحبًا لي، وبقي إسحاق معي في كل الظروف، درس الفقه والنحو وعلم الكلام في المدرسة المستنصرية عندما أنشأها أخي الخليفة المستنصر، درست فيها أيضا لكنه كان أبرز وأشد انكبابا على التحصيل...كان يريد أن يعمل بعد تخرجه في ديوان الخليفة(...) كان إسحاق أيضا شجاعا ويجيد الفروسية والقتال كما أجيدهما، ولم أكن أشك لحظة في ذكائه أو ولائه، بقائي في الحبس كل هذه السنوات جعلني أجهل الكثير مما يحدث في الخارج، بينما كان إسحاق منخرطا في الحياة والتجارة وطلب العلم»[22].

المستشف من المقطع السردي، أن الروائي عمد إلى كسر سيرورة السرد التذكري أو التاريخي، بمنحنا فسحة هادئة من جملة تخيلاته المتعلقة بشخصية أحمد، فوصف طبيعة علاقته بإسحاق الشخصية المتخيّلة ومجموعة العلوم التي نهل منها كعادة حاشية البلاط الحاكم واستئناس أحمد بصحبة إسحاق والوثوق فيه رغم تنكر ابن أخيه وظلمه له، وكأنه بذلك يُخاطب الوجدان العربي الذي يبحث عمن ينصره ويعينه في صلاح أمره وخروجه من الضيق إلى وسع الحياة

الدنيا، يمكن قراءة المقاطع المُتشاكلة مع ذلك السياق باعتبارها «أسيقة سيميائية وأفضية من الدلالات المفتوحة، تراعي القوانين السردية المتباينة بين صرّامة النحو وسيولة الدلالة المفتوحة» [23]، فمن حين إلى حين نتلمس التشريح النفسي المعمّق لشخصيات الرواية وتمثلات همومها وأحلامها في واقع الوطن العربي.

خروج أحمد من السجن إلى الحرية، لم يكن بالأمر السهل واليسير، بل على العكس من ذلك الكثير من المخاطر والمصاعب كانت بانتظاره خارج أسوار السجن، ويتضح ذلك في الحوار السردي بين أحمد إسحاق بشأن خطة النجاة من السجن وجند التتار:« أين سنذهب ؟وكيف نعرف أنّ المكان الذي نقصده ليس مثل هنا ؟

نذهب إلى الشماسية مولاي، إلى بطريرك السريان مكيخا الثاني في كنيسة دار الروم، أعرفه جيدا وسيمنحنا الأمان، وبساتين الشماسية ستشتت الرائحة وتخفف أثرها، ننتظر هناك، إلى أن تستبين الأمور.

ولماذا تعتقد أن البطريرك بأمان أو يستطيع أن يمنحنا الأمان ؟

لأن زوجة هولاكو "دوقوز" خاتون نسطورية على مذهب البطريرك، وقد قدمت الأمان للنصارى في المدن التي اجتاحها التتار قبل ذلك، وغالبًا ستُكرر ذلك معهم في بغداد.

أليست دار الوزير مؤيد الدين في الكرخ أقرب ؟ألا تعتقد أنه يمكن أن يمنحنا الأمان ؟الشماسية تتطلب مسير يومين إذا مشينا فقط في الليل.

مولاي، الوزير مؤيد الدين غالبًا مع هولاكو، إن لم يكن معه منذ البداية، فهو معه الآن، ونحن لا نعرف ما الذي حدث للخليفة وأولاده حتى الآن...البطريرك لا مصلحة له في إلحاق الأذى بنا، بينما الأمر مختلف مع الوزير الذي قد تكون له أطماعه، علينا أن نتجنبه تمامًا.

سكتُ لم يكن لدينا خيار آخر على ما يبدو.» [24] .

رحلة أحمد وإسحاق خارج السجن كانت جد شاقة، كل ثانية وهما في طريقهما لمكان آمن كانت حملا ثقيلا يطبق على صدريهما، التتار دمر الكثير من المباني والحصون، وحصد في طريق بسط نفوذه الأرواح من كل الأعمار والأجناس، لم يرحم صراخ الأطفال وعويل النساء وتوسل الضعفاء العُزّل، أما الجند فقد عذبوهم أشد عذاب، لم يُمثل سرد الروائي-أحمد خيري العمري- سردا لقصة أحمد فقط بل سرد أوجاع ذاكرة وهوية جماعية «حتى تكون للهوية السردية الجماعية قيمتها الأساسية، فكل أمة وجماعة وهي تسرد تاريخها، لا تستطيع أن تتخلص من نسيج الحكايات حول ماضيها، ومزج الخيال بالواقع» [25]، ولعل القارئ وهو يطالع المقاطع السردية الواصفة لوحشية التتار والدّمار المفجع الذي عاشته بغداد، سيشعر بوجع وألم على حضارة شهدت ولادة علوم وعلماء ليس يجاريهم أحد من الممالك وقتها، حضارة أقّل نجمها وسقطت بوحشية لتبقى جرحًا لا يعرف الضماد.

وتحفل الرواية بكثير من المشاهد المفزعة لما حدث في بغداد وقت سقوطها، من ذلك ما جاء على لسان أحمد المستنصر بالله: «عندما تحدث إسحاق عن وجود تلال وأكوام من الجثث والرؤوس المقطوعة، حسبته يبالغ، لم أشك بوجود عدد كبير من الجثث في الشوارع، لكن ما رأيته كان مختلفًا تمامًا، تمنيت لو أن القمر لم يكن بدرًا الليلة، تمنيت لو أني تخيلت أن هذه التلال لم تكن أجسادًا لبشر، بل كانت مجرد تلال ظهرت في بغداد في هذه السنوات العشر التي قضيتها في الحبس، لكن البدر جعلني أرى، رأيت بعض الوجوه كانت لا تزال محتفظة بملامحها، وكان فيها مزيج من الدهشة والذهول والعتب، لم يسمح لي إسحاق أن أُطيل النظر، هيا يا "مولاي": علينا أن نُسرع، قال بحزم، وخُيّل لي أنه قال في نفسه: سترى جثثًا كثيرة، لا تعجل.» [26]

والجدير بالذكر أيضا أن دخول المستنصر بالله السجن ذكرته كتب التاريخ ولكن في الرواية أخذ الروائي-أحمد خيري العمري- الحدث وأعاد نسجه بتوليفة متخيّلة، فعملية هروبه وكل المغامرات التي مر فيها مع إسحاق من خيالات الروائي، عدّا ذكر الأماكن والشخصيات التي كانت موجودة بالفعل ذلك الزمن «الروائي يجنح إلى تخيل أحداث تاريخية ممكنة في إطار تاريخي حقيقي، فالحكي ينطلق من كليات المادة التاريخية، والتخيل ينشغل بإنتاج ما يملأ ذلك الإطار من تفاصيل وجزئيات، فالتاريخ هنا يبدأ حين تنتهي الرواية، إننا هنا أمام ما يمكن تسميته إلباس التاريخ الفكرة التي ينطلق منها الروائي» [27]، وقد أشار الروائي إلى ذلك في الرواية «أحمد المستنصر بالله ابن الخليفة الظاهر شخصية حقيقية، كان حبيسًا عند سقوط بغداد وتمكن من الهرب ووصل إلى مصر بعد سنوات وبويع هناك، ثم قُتل على يد

التتار عندما حاول استعادة بغداد، تفاصيل هروبه غير معروفة، وما ورد في الرواية من تفاصيل مجرد خيال روائي، تفاصيل الأماكن والأحياء البغدادية الصحيحة»[28].

3.فضاءات تعالق الذاكرة بالمتخييل

سلك الروائي-أحمد خيري العمري-في تشكيل عوالم رواية كريسماس بين ذاكرة متألمة ومتخيّل حالم فيه كثير من الأمل، فالأحداث تباينت بين حقيقية ومتخيّلة، والقارئ في بداية تغلغله لمجاهيل الرواية يتفاجأ أنه بين عالمين أو روايتين داخل رواية واحدة؛ ميادة، مريم، سعد، حيدر كلها شخصيات متخيّلة في مسارات سردية مختلفة، في الشق الآخر أحمد المستنصر بالله رواية عن عالم ماضي، هذا التّزاوج بين الممكن واللاممكن أو الواقعي والمتخيّل أربك القارئ وجعله أكثر حذرا وترقبا في تلقي تخوم الرواية والوصول إلى مدارات المعنى وتأويلاته.

1.3.فضاء الألم

تتبدى في الرواية عوالم متباينة ومتناقضة، تلتقي حينا وتتعالق، وتتوازى وتتوارى حينا آخر، قلنا سابقا أن الرواية جمعت بين منطلقين سرديين أحدهما تارخي تذكري والآخر متخيّل، إذ تتناوب شخصيات المنطلقين، وفي ذات الوقت يستفزنا سؤال حول علاقة شخصية أحمد المستنصر بالله بباقي شخصيات الرواية؛ ميادة، حيدر، مريم، سعد، آ يمكن اعتبار أحمد الشخصية اللغز؟، وما علاقة سنة 1258م بسنة2018؟ إن «القصدية التاريخية وحدها تصير ذات تأثير تمارسه من خلال إدماجها في موضوعها المقصود مصادر الصياغة القصصية النابعة من التشكيل السردي للخيال، في حين لا تنتج قصدية القصص آثارها في التحري والفعل التحويلي والمعاناة، إلا من خلال تبنيها بطريقة متناظرة مصادر الصياغة التاريخية التي تقدمها محاولات إنشاء الماضي الفعلي، ومن هذه التبادلات الحميمية بين إضفاء صفة التاريخية على السرد القصصي، وإضفاء الصفة الخيالية للسرد التاريخي، يتولد ما نسميه بالزمن الإنساني الذي ليس هو الزمن المروي»[29].

الإجابة عن علاقة أحمد بباقي الشخصيات وكذا الزمنيين المختلفين لا نقبض عليها بسهولة، فمع تقليب صفحات الرواية مرات نشعر أننا أمسكنا بطرف الخيط وأحيانا نصطدم بأننا أفلتناه، هل أحد تلك الشخصيات سليل أحمد المستنصر بالله، العكس تماما لا علاقة لهم ببعض، وسنتي 1258 و2018 ليستا في مكان واحد الأولى في بغداد والأخرى متوزعة بين بغداد ولندن ومكة، فأي رابط بينها؟ تنفتح القراءة التأويلية لتتسرب من خلال المقاطع السردية أن هناك سلطتين واحدة مركزية والأخرى هامشية، الأولى مركزية التسريد التخيلي مع شخصيات؛ ميادة، مريم، سعد، حيدر بحكم حضورها المكثف واحتلالها حيزا أكبر في الرواية، الثانية هامشية شخصية أحمد والأحداث المتعلقة بها لأنها من زمن الدولة العباسية، هذا كقراءة أولى ولكن بتأويل المركزين نجد تنازع السلطتين مرات واتحادهما مرات أخرى، كل الشخصيات من بغداد ونشأت وترعرت فيها ولها ذكريات بها، فشكليا الغلبة لشخصيات الأربعة (مريم، ميادة، سعد، حيدر) ولكن في العمق أحمد وسقوط بغداد هو المركز.

أحمد كان من نسل الخلفاء العباسين، والشخصيات الأربعة الأخرى تمثل طبقة مثقفة وميسورة اجتماعيا في عصرنا الحالي، وكانت لها مكانة في مجتمع بغداد، أحمد كان أسير الخليفة مخافة الانقلاب عليه واعتلاء عرش الدولة العباسة، أما الشخصيات الأربعة الأخرى في الظاهر كانت حرة ولكن في العمق هي حبيسة سجن ومنفى داخليا كل حسب سياقه، فمثلا ميادة كانت أسيرة ذكرى اغتيال زوجها عمر وتركها العراق مع ابنتها مريم هربا وخوفا من الحرب الطائفية، تقول ميادة مسترسلة في حديثها الداخلي: «ما مررت به، بعد ما حدث لعمر، كان هو الذي أعاد صنعي من جديد، كل من عرفني قبل خروجي من بغداد، قبل مروري بما مررت به، يكون قد تعرف على ميادة أخرى تماما أكاد لا أعرفها حتى أنا اليوم. كنت بسيطة، هشة، ساذجة، أتعامل مع العالم من خلال منظار وردي مثل أغلب فتيات مدرسة العقيدة للبنات في بغداد في تلك الفترة، كنا نعيش جميعًا على أحلام وضعتها أمهاتنا وعماتنا وخالاتنا في عقولنا، أحلام الفتاة المحاطة بطبقات الحماية الاجتماعية، كنت محمية بعدة طبقات..الأب الميسور ماديا واسم عائلته المعروفة في بغداد..والأم مديرة المدرسة القوية التي يحسب لها الجميع ألف حساب، والشقيقين الأكبر مني واللذين لن يتجرأ أحد أن يمس شقيقتهما الصغرى بسوء..وصفة أحلام فتيات ثانوية العقيدة كانت بسيطة إلى حد السذّاجة» [30].

ميادة ليست ذاتا واحدة بل مجموعة ذوات تظهر تباعا بعد إزاحة اللثام عنها، هي امرأة مرت بظروف كثيرة تركت آثارها عليها «أنت أيضا تغيرت كثيرا يا ميادة، من الواضح أنك أصبحت أقوى بكثير وأكثر صلابة من الميادة التي غادرت بغداد قبل 12عامًا..الظروف جعلتك أقوى.»[31]، في كل مرحلة كانت تشتد أزماتها الحياتية فتجعلها مضطربة وبائسة تبحث عن مخرج أو بصيص أمل يُنجيها من ظلمة كهف الشقاء، ميادة تألمت فتعلمت أن تكون قوية لأجلها ولأجل ابنتها مريم، لذا اختارت أن تواجه ماضيها وتتعافى نهائيا فعرضت على سعد أخو زوجها ووالدها الالتقاء بهم لأداء مناسك العمرة نهاية السنة في عطلة الكريسماس، للخروج من ذلك الألم ومد آواصر الود والمحبة بين ابنتها مريم وعائلة والدها التي تركتهم متألمة في الماضي.

أيضا حيدر أخو ميادة كان سجين ذاته، عانى من تشظي الهوية والذات داخل المجتمع البريطاني «عشت عشرين عاما وأنا في حالة (هدنة) مع فصامي، هدنة جعلتني لا أنتبه إلى أني مضيت بعيدا في الفصام، لو أني حافظت على توازن ما، لو أن فصامي كان بدرجة أقل، لو أن شجرة الكريسماس كانت في جهة أخرى واتجاه آخر، بحيث لا تشوش على القبلة، أما كان يمكن أن تكون الأمور مع سارة مختلفة؟ أما يمكن ألا نصل لهذا الذي وصلنا له؟ هل فات الآوان؟ هل أضعت نفسي وأضعت سارة؟ هل أسمع كلام ابن خالي أتزوج في العراق وأخلف ذكورا أو إناثا أعوض بهم مصيبتي وعاري في سارة؟ لكني لا أريد أن أعتبر أن سارة انتهت، ولا أريد أن أخسر إميلي ولا أريد أن أعيش المزيد من الازدواجيات في حياتي، لا يمكنني أن أحل مشكلتي مع سارة بإنجاب المزيد من المشاكل، على أمل أن يكونوا أفضل منها»[32].

لقد ظل حيدر سجين فكرة وهمية بأنه بريطاني وأصبح متحررا من حمولات ثقافة مسقط رأسه بغداد، توهم بأن البعد الجغرافي يفترض موت نسخته القديمة، لكن حمل ابنته بطفل خارج مؤسسة الزواج فجّر ذلك السكون وأخرج كل ما بداخله، حيدر اعتبر رحيله عن بغداد بداية جديدة عن الأزمات التي حدثت والتي بسببها لم يستطع رؤية والده وحضور جنازته، بغداد كانت واقعا موبؤا البقاء فيها معناه الهلاك والموت.

سعد أيضا كان سجين عنفوان الإيكو، بقي في بغداد ولكنه قتل أحلامه وفشل في حياته، بقي بصحبة والده المريض بالزهايمر، يقول بعد محادثة ميادة له بشأن أداء مناسك العمرة ورؤية مريم ابنة أخيه عمر المقتول:« انتهى الاتصال على هذا. أغلقت الهاتف وسجدت على الأرض سجدة شكر، سنوات وأنا أدعو أن أرى مريم، سنوات طويلة مرت وأنا أدعو بذلك حتى صار الدعاء لصيقًا بلساني دون وعي مني(...)ذهبت لأبي واحتضنته في سريره، قلت له إننا سنرى مريم ابنة عمر قريبًا إن شاء الله»[33]، كانت زيارته للبقاع المقدسة بعد فترات انقطاع بينه وبين ميادة وعائلتها فرصة وتجربة حياة جديدة، فيها التقى مريم ولكنه فُجع بوفاة والده قبل عودتها إلى بغداد «قلت بصراحة إني حزين أكثر على نفسي، لم يعد لدي ما أفعله، أصبحت وحيدا. وحيدا تماما. أبكي على نفسي لأني سأعود وحيدا إلى بغداد، ولن أجده هناك لأرعاه وأحمله وأقلم أظافره»[34].

في حين مريم كانت سجينة القطيعة بينها وبين كل ما يذكرها بعائلة أبيها وببغداد، تقول بعد سماعها خبر ذهاب عمها وجدها لأداء مناسك العمرة، تلك الرحلة التي كانت تمثل لها مشروع تخرجها حول وضع تصميم هندسي للكعبة، فعلى حد قولها سيكون أكثر كريسماس في مكة دهشة، وقد عبرت عن المفاجأة بقولها:« بعد سنوات طويلة دون تواصل معهما، الآن ودون سابق إنذار، صار عليّ أن ألتقي بجدي وعمي اللذين لا أذكرهما، وأن أتحمل مجاملات لا طعم لها، وربما قبلات وأحضان على الطريقة العراقية،(...) سنوات مرت دون أي ذكر لهما، بل إني نسيت وجودهما تقريبا، سألتها أكثر من مرة بشكل عابر عن أهل أبي عندما تقودنا الحوارات إلى ذلك، فكانت تقول شيئا عاما جدا، دون إشارة سلبية أو إيجابية، وبالتأكيد دون تشجيع على المُضي في الأسئلة»[35].

على ضوء كل تلك العلاقات والمسارات السردية نجد أن جميع الشخصيات تختزن ذاكرة حزينة عن بغداد، فيها القتل والدمار والخراب، بغداد لقد حطمها التتار قبلا والسياسة اليوم، كل شخصية تنزف ألما من الداخل؛ بغداد تسكنهم رغم بعدهم، وفي حديث بين سعد وميادة يظهر عمق الجرح «سألتها: هل تشتاقين لبغداد؟
تغيرت ملامحها فورا وأبعدت عينيها عني: أي بغداد؟ بغداد التي قُتل فيها عمر وميثم؟لا،لا أشتاق لها، أشتاق لبغداد أخرى، لكنها لم تعد موجودة، ذهبت مع الذين ذهبوا.
معها حق، قلت لها: أنا أيضا أشتاق لتلك البغداد »[36].

لقد غاصت الرواية في تداعيات ضياع بغداد بين الماضي والحاضر، أحمد المستنصر بالله يمثل ذاكرة الخيبة والخذلان، سعد، مريم، حيدر، ميادة وجه آخر لسقوط بغداد وهجرة أبناءه، يذكر الروائي في حوار بين أحمد وإسحاق حال العباد بعد محاصرة بغداد ودخول التتار:«ما الذي يقولونه عن بني العباس؟هل يأملون عودتهم؟
سكت إسحاق قليلا ثم قال"هم يسُبون الجميع ويلومون الجميع الآن، كيف؟
يقولون لولا طيش المستعصم وضعف عزيمته ما كان التتار وصلوا إلى بغداد، يسُبون الوزير مؤيد الدين ثم يتذكرون أن المستعصم هو من اتخذه وزيرًا، فيسبونه ويسبون هولاكو وجنده وعماله ويدعون عليهم أيضًا، ولكنهم يستدركون: ومن أوصلهم إلى هنا...
هل انتهى أمر بني العباس برأي الرعية يا إسحاق؟
تنهد إسحاق وقال"مولاي" تلك الأيام...
ما بالها؟؟
نداولها بين الناس يا"مولاي"
شعرت أني أسمع الآية لأول مرة في حياتي.
(...)مررنا بأحياء الكرخ الشمالية، الخوارزمية وباب الشعير والحربية، هالتني عودة الحياة إليها أكثر من مشاهد الموت في قصر الخلد وقصر الذهب، الناس يرممون البيوت ويفتحون الأسواق، رأيت البعض يضحكون ويتحدثون فيما بينهم كما لو أن شيئًا لم يحدث...أ هكذا يُنسى أناس أميرهم وخلفيتهم بسرعة؟ أ هكذا يُنسى بنو العباس؟ أهكذا تنسى المدينة من بناها؟ كان هذا أشد وطأة من كل ما مضى، هذه كانت النهاية الحقيقية، بدت فكرة الابتعاد إلى دير بعيد عن بغداد مواتية لي، لا أستطيع أن أرى هذه المدينة التي لم أعد أعرفها، ألقيت نظرة على بغداد ونحن نُغادرها...وقلت لنفسي: ليس مثلك يا بغداد»[37] .

والمستشف أن كل شخصية من شخصيات الرواية كان بداخلها حزن على حال بغداد، والحسرة على ذلك الماضي الجميل، والحنين الدائم لبغداد الحضارة والعلم والقوة، بغداد المجد والسمو، ولعل جد مريم كان طوال الرواية يستذكر سطوة بغداد وعظمتها وقد تواترت من خلاله مجموعة أبيات شعرية من قصيدة شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد يقول سعد عن والده «صباحا وجدته قد كتب أبياتًا من الشعر على دفتر ملاحظات الفندق، كان خطه لا يزال جميلا منمقًا كما كان من قبل، لولا أثر ارتجاف يده الذي زاد الخط محابة

عِندِيْ لِأَجْلِ فِرَاقِكُـــمْ آلاَمُ فَالِاَمَ أُعْذَلُ فِيْكُمُ وَأُلاَمُ؟
مَنْ كَانَ مِثْلِيْ لِلْحَبِيْبِ مُفَارِقًا لاَ تَعْذُلُوْهُ فَالُكَلاَمُ كَلاَمُ»[38].

طيلة مكوث جد مريم –والد سعد- في البقاع المقدسة، كان ستذكر أبيات القصيدة فكانت فجأة تسقط عليه رغم معاناته من الزهايمر، إلا أنه كان يُسارع لتدوينها بنوع من الشغف والحرص عليها، وقد استغرب سعد الأمر كثيرا يقول: «كنت أبحث عن شريط الباندول ولمحت على الطاولة دفتر ملاحظات الفندق مفتوحا على الورقة التي كتب فيها أبي القصيدة أمس، لكنها زادت..وأضاف لها:

إِنْ كُنْتَ مِثْلِيْ لِلْأَحِبَةِ فَاقِدًا أَوْ فِيْ فُؤَادِكَ لَوْعَةٌ وَغَـرَامُ
قِفْ فِيْ دِيَّارِ الظَاعِنِيْنَ وَنَادِهَا يَا دَارُ مَا صَنَعَتْ بِكِ الْأَيَامُ؟»[39] .

لعل الجد بعد لقاء مريم بدأ يستعيد شيئا من ذاكرته المفقودة؛ ذاكرة تحمل مرارة اغتيال ابنه عمر الطبيب المشهور، ويُتم مريم، ومن بعدها سفرها مع أمها للندن بعيدا عن بغداد ومآسيها، في كل لقاء مع مريم كان ينفتح الجرح في خفاء ويبكي دون صوت، بداخله ألم لم يستوعب معه ما حصل لعمر فذهبت ذاكرته، وبقيت في زمن حياة عمر فقط، كأنها ترفض الإنصياع لسطوة الزمن وقوة الحقيقة، تذكره لعمر ولبغداد القديمة، التي كان ينعم فيها بالأمن والسلام، أما بغداد اليوم فقد مزقه فراق الأحبة ورائحة الموت وأكوام الجثث التي تُشبه ما حدث ببغداد زمن التتار.

2.3.فضاء الأمل

صورت الرواية في محطات سردية كثيرة هول الفاجعة التي أصابت المسلمين بسقوط معقل الإسلام وصرح في أيدي التتار، بغداد زمن أحمد المستنصر بالله وبغداد زمن ميادة، حيدر، سعد، مريم، الجد، فكان فيها استذكار

للأحداث الأليمة وتقاعس الحكام في الحفاظ على كيان الخلافة الإسلامية، ولإبراز حالة الانكسار بسقوط بغداد في زمنين متباعدين، إلا أن في جانب آخر شحنة إيجابية من طاقة الأمل والسعي نحو بناء حلم عودة الحضارة العراقية، نحو ما جاء في حوار بين أحمد المستنصر بالله والخطيب الشاعر شمس الدين الكوفي: « قال شمس الدين وهو ينظر إليّ. إذن إلى أين ؟سألته.

قال: اسمع يا ابن العم، ليس هناك من يريد أن تنجو هنا أكثر مني، تأكد من ذلك، فضل بني العباس عليَّ وعلى المسلمين يُجبرني على أن أكون خادمًا أمينًا لك إلى أن تصل إلى حيث يشاء الله، لذلك دعني أقول لك... إذا كنت تُريد مجرد الحماية ؟نعم ربما تجد في الشام من يحميك، لكن إذا كنت تُريد من ينصرك، من يحمل رايتك، من يُعينك على استعادة مُلكك وملك أجدادك، واستعادة بغداد، واعادة الخلافة إلى حيث وضعها الله...فطريقنا ليس إلى الشام»[40].

وفي مقام آخر يسترسل أحمد المستنصر بالله في خطابه الحماسي الداخلي، وهو يحلم ببغداد الجديدة، لا دماء ولا ظلم ولا هزائم فيها، بغداد النصر والخلافة الإسلامية ولا شيئ غير ذلك: «قدر الله الذي اختاره لي أن أكون الخليفة، كيف شككت بذلك لحظة واحدة، سبحانك يا الله وعفوك، مرت بي أيام وشهور وقد نسيت هذا ولم أكن أطمع إلا بالخروج من السجن، لكن قدرك وعفوك ورحمتك أوسع وأجزل في العطاء...سأُعيد لبني العباس مجدهم وعزهم...سأُعيد لبغداد نورها وألقها، سأُعيدها عاصمة الدنيا، سأجعل شمس الدين يتغزل في جمالها ويتغنى بعظمتها...سأمحو كل ما فعله التتار بها، وأعيدها أفضل مما كانت...أنا الخليفة الذي ستستقيم به الدنيا...أنا ظل الله في الأرض»[41]، لقد سنحت الفرصة الآن لأحمد المستنصر بالله أن يمضي قُدمًا لتحقيق نصر يعيد لبغداد سلطانها والتخلص من حكم التتار وكل من كان له أمر في سقوطها،«من اليوم أنا أحمد المستنصر بالله الثاني، وسيأتي يوم يُقال عن أخي أبو جعفر المستنصر أنه شقيق الخليفة أحمد المستنصر بالله، وعن أبي الخليفة الظاهر أنه أبو الخليفة المستنصر الذي أعاد لبني العباس مجدهم. انتظريني يا بغداد، لن أبطئ عليكِ...»[42].

بالنسبة لجد مريم شخصية قليلة الظهور في الرواية ولكن من خلالها تم معرفة علاقة شخصية أحمد المستنصر بالله، ذلك أن الجد في كل مقام يتذكر بغداد العزة والشموخ، بغداد الألفة بغداد شباب ابنه عمر، ويُطالعنا الروائي بسر احتفاء الجد بسيرة أحمد المستنصر بالله والدولة العباسية في هذا المقطع: «قلت: لم أكن أتخيل أن المطر يمكن أن ينزل بهذه القوة في مكة، علق خالي: على العكس، المطر يؤدي إلى سيول أغرقت الكعبة مرات كثيرة. قال جدي من كرسيه: ولهذا شقت زبيدة العين المشهورة بعين زبيدة، تسقي مكة وحجيجها وتجمع مياه السيول لتوصلها إلى شوارع مكة، سألت: من زبيدة ؟

رد جدي: زبيدة هي بنت جعفر المنصور، زوجة هارون الرشيد...أنفقت من مالها الخاص على قناة للري من وادي نعمان حيث تتجمع السيول إلى مكة، عشرة أميال، وأدخلتها إلى شوارع مكة...بقيت تسقي مكة وحجاجها لقرون طويلة. قاطعه عمي وهو يقول لي: جدك موسوعة متحركة عن الدولة العباسية، يمكن أن يتكلم عن الأمر لغاية فجر الغد دون أن يكل أو يمل(...) سألت عمي: لماذا الدولة العباسية تحديدًا ؟ أعرف أن تخصصه كان عسكريًا، رد وهو يعدل من وضع جدي على الكرسي: صحيح لكن رسالته في الدكتوراه كانت في الخطط العسكرية التي اتبعها التتار في الهجوم على بغداد، وهل كان يمكن أن يتغير ما حدث لو أن العباسين استخدموا خططًا مختلفة...جعله هذا يهتم بكل ما هو عباسي»[43].

تجدد حلم بناء بغداد وإعادة الحياة إليها وبهجتها لأحمد بخروجه من السجن، والبحث عن ملجأ آمن لحين تحسن الأوضاع وخروجه للعامة، فكان إسحاق والخطيب شمس الدين الكوفي مؤمنين بنصرته وبتوليه الخلافة من جديد، فكان لهم ذلك وتمت مبايعته « في اللحظة التي وصل فيها أحمد إلى مصر، ورأى استقبال الناس له، تغير تمامًا، حتى قبل أن تتم له البيعة، لم يعد نفس الشخص الحذر الذي يطيع ما أقوله له لأنه يعرف أني أعرف أكثر منه، تغير فجأة، حذره كان ربما محض غطاء أورثه السجن إياه، عندما رأى أن القوة أصبحت في متناول يديه، أصبح مختلفًا تمامًا، كما لو كان قد خلط بين الحذر وبين تردد المستعصم، فذهب إلى الطرف الآخر باندفاع وتهور...»[44]، غير أن الحلم يحتاج لسعي وتخطيط وهو ما كان ينقص أحمد المستنصر بالله، فأخذته العزة بقوته فاغتر وقلل من شأن جيش التتار، «بعد يومين من تجاوزنا لحديثه أغار علينا التتار، كنا لقمة سائغة، لم تكن هناك عيون تسبقنا تراقب الطريق إلى بغداد، لم تكن معركة، كانت مذبحة، هربت أنا إلى النهر مع آخرين، ثم عدت لأبحث عنه بين الجثث، لم أجده، لكن هناك من رآه

وهو يُذبح بيد التتار»[45]. فعلا في بعض الإقدام هلاك، وهذا ما كان من شأن أحمد المستنصر بالله، نتذكر من خلاله الماضي التاريخي وفي الآن ذاته نتعلم من دروسه ونأخذ العبّر، المجد يُبنى بالعلم والتفكر، بالسعي والتخطيط لمستقبل أفضل، والاستفادة مما تركه السلف والنهوض من جديد.

الأمر المدهش في شخصية الجد على الرغم من مرض الزهايمر إلا أنه لم يتوقف عن الحنين لبغداد، والحلم بعودة عزها، لدرجة شغفه بشخصية أحمد المستنصر بالله «قالت أكثر من مرة كنت معه في الجناح ويأتي عامل الخدمة المنزلية، ويُوقع جدي على الفاتورة باسم"أحمد المستنصر بالله، فتصورت أن هذا هو اسمه وأنه مُركب، سألتها: أحمد المستنصر بالله فعلا؟ وقع بهذا الاسم؟ منذ فترة لم يتحدث عنه، عن من؟ سألت مريم.

أبي كان مُهتمًا جدًا بشخصية وسيرة أحمد المستنصر بالله وهو أحد أُمراء العباسيين، وكان قد نجا من مذبحة التتار، هو عم الخليفة المستعصم الذي قتله المغول عندما احتلوا بغداد، كان سجينًا وعندما هاجم التتار بغداد وقتلوا أغلب بني العباس...فر من السجن وطالب بالخلافة»[46]، بقي الجد محتفظا بشخصية البطل وقائد الانتصارات بداخله، لدرجة توهم أنهما شخصا واحدا، بالفعل كان مولعًا برحلة البحث عن المجد الضائع وتبديد واقع بغداد اليوم الموبوء « سألت مريم: لماذا كان مهتمًا تحديدًا بهذا الشخص؟

قلت ربما كلاهما كانا يبحثان عن زمان ضائع، عن بغداد أخرى يعتقدان أنهما يمكن أن يستعيداها دون تغيير...أبي كان يريد في أعماق لاوعيه أن يرجع كل شيء كما كان، قبل أن يُحال إلى التقاعد، عمر موجود وأمي موجودة وكل شيء بخير، لم يفقد أحد بعد،،،بغداد كما كانت من قبل، وشارع الأميرات كما كان من قبل، وأحمد المستنصر بالله كان يريد أن ترجع الخلافة العباسية إلى سابق مجدها، رغم أن تدهورها كان تدريجيا واستمر لقرون...لكنه كان يعتقد أنه بإمكانه أن يُرجع عقارب الساعة إلى الوراء، ففكرت في نفسي: ربما كان أبي يرى أن أحمد المستنصر بالله يُمثل الكثيرين منا، التمسك بالمجد الضائع والتصور أن بإمكاننا تحويل عجلة الزمن للخلف، الكثيرون منا يعيشون في الماضي ويعتقدون أن يسحبوه إلى الحاضر »[47]،

من جانب آخر يمكن أن نعتبر فكرة القيام بكريسماس في مكة فضاءً متجددا للحلم بالعودة والوصل، ميادة بعد أكثر من عشر سنوات قررت أن تواجه ماضيها وتتصالح مع كل ما جرى لها في بغداد؛ بغداد التي غدرت بزوجها وأخيها، بغداد التي هاجرت منها مُحملة بالخيبة والخذلان، بغداد التي قتلت بداخلها ميادة الحالمة والرومانسية، قررت ميادة إعادة بناء جسر من التواصل بين ابنتها وعائلة والدها، وكان لها ذلك، حيدر الذي تشظت ذاته وانشطرت أحلامه في لندن إلى خزي وعار بسبب حمل ابنته دون زواج ومعاناته من اضطراب نفسي، فكرة ميادة الذهاب إلى مكة جعلته يتقرب روحانيا من الله ويُعيد شحن نفسه باليقين بأن الفرج أو اليُسر ملازم للعُسر، في مكة استطاع إعادة رابط الأبوة مع ابنته"سارة" وإصلاح التشققات، سعد كان يعتقد بأنه وحيد بعد وفاة والده في العمرة وأنه سيعود بغداد خائبا لكنه حصد علاقة أبوة مع مريم، أصبح له شغف من جديد بالحياة، أما مريم في رحلتها اكتشفت هويتها العراقية وتجذر أصولها بداخلها وأنها ستُحقق التوازن بين بغداد ولندن وتشق طريق فرادتها في الهندسة المعمارية على غرار الأيقونة "زها حديد"، كل شخصية اختلفت نظرتها لنفسها وللحياة من بعد "كريسماس في مكة" «هل ستكون تلك الرحلة مقدمة لرحلة ذهابٍ وإيابٍ، أم أنها ستكون رحلة باتجاه واحد، لا يُلتفت إلى ما مضى؟ الشيء المؤكد الوحيد هو أن تلك الإجازة في مكة، ستكون استثنائية جدًا»[48]، ونقرأ أيضا التوليفة الفنية بين الماضي والمُتخيّل بأن هذا التمازج يضع التاريخ «في منظومة الأجناس ذات الغاية النفعية، في حين الرواية في منظومة الأجناس ذات الغاية الجمالية»[49]، رواية جمعت بين تجاذبات سياقية مختلفة، أسس من خلالها الروائي لعوالم قرائية مائزة.

في ختام هذه الورقة البحثية نخلص إلى أن:

- ✓ رواية كريسماس لأحمد خيري العمري نفضت الغبار عن شخصية تاريخية أحمد المستنصر بالله.
- ✓ استنطقت الرواية في محطات سردية كثيرة حيزا من المسكوت عنه في تاريخ الدولة العباسية، من خلال تمثلات أحمد المستنصر بالله.

- ✓ استحضر أحمد خيري العمري شخصية تاريخية من ماضي التاريخ الإسلامي العباسي، وأعاد ترتيب حيثياتها وفق منظور تخيّلي فني.
- ✓ كثف الروائي من اللغة التصويرية للواقع العراقي المأزوم، وبث رسائل ضمنية للقارئ العربي.
- ✓ جمعت الرواية بين ضفتين سرديتين؛ الأولى ذاكرة تاريخية والثانية رؤية تخيّلية، فتداخلت فضاءات القراءة التأويلية داخلها.
- ✓ الشخصيات المتخيّلة في الرواية أسهمت في تعميق الواقع العربي بجميع أبعاده، وتصورات شعوبه ما بين مجد ضائع وحلم تكبله لعبة السياسة.

هوامش:

[1]- أحمد خيري العمري،(2019)، كريسماس، عصير الكتب، (بيروت)، ص338.
[2]- المصدر نفسه، ص 36.
[3]- بول ريكور، (2009)، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة، (بيروت)، ص379.
[4]-عبد الله إبراهيم، (2011)، التخيل التاريخي"السرد والإمبراطورية والتجربة الإستعمارية، دار الفارس للنشر والتوزيع، (الأردن)، ص06.
[5]-أحمد خيري العمري، كريسماس، ص37.
[6]- جورج لوكاتش،(1978)، الرواية التاريخية، تر صالح جواد كاظم، دار الطليعة، (بيروت)، ص89.
[7]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص37.
[8]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[9]- ابن خلدون، (2010)، مقدمة، دار ابن الجوزي للطباعة والنشر والتوزيع،(القاهرة)، ص29.
[10]- رفيف رضا صيداوي،(2008)، الرواية العربية بين الواقع والمتخيّل، دار الفارابي، (بيروت)، ص96.
[11]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص285.
[12]-المصدر نفسه، ص287.
[13]- المصدر نفسه، ص287ص288.
[14]- المصدر السابق، ص288.
[15]- المصدر نفسه، ص311.
[16]- ميلان كونديرا، (2006)، الستارة، تر معن عاقل، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق)، ص60.
[17]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص338.
[18]- عبد السلام أقلمون، (2010)، الرواية والتاريخ"سلطان الحكاية وحكاية السلطان"، دار الكتاب الجديدة المتحدة، (بيروت)، ص101ص102.
[19]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص40ص41.
[20]- المصدر السابق، ص41.
[21]- محمد القاضي، (2008)، الرواية والتاريخ"دراسة في تخييل المرجعي"، دار المعرفة للنشر والتوزيع، (تونس)، ص150.
[22]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص64.
[23]- أحمد يوسف، الشرط التاريخي وإيحاءات الغيرية في رواية الأمير، مجلة التواصل، جامعة باجي مختار (عنابة)، العدد29، ديسمبر 2011، ص76.
[24]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص66ص67.
[25]- عبد الله إبراهيم، (2011)، التخيل التاريخي"السرد والإمبراطورية والتجربة الإستعمارية، دار الفارس للنشر والتوزيع، (الأردن)، ص07.
[26]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص97.
[27]- آمنة بلعلى، (1433ه)، الرواية الجزائرية بين تخيل التاريخ وتأويله، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الخامس،(السعودية)، ص257.
[28]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص338.
[29]-بول ريكور، (2006)، الزمان والسرد، الجزء الثالث، تر فلاح رحيم وسعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة،(بيروت)، ص149.
[30]- أحمد خيري العمري، كريسماس، ص20.
[31]- المصدر نفسه، ص195.
[32]- المصدر السابق، ص 281.
[33]- المصدر نفسه، ص26ص27ص28.
[34]- المصدر نفسه، ص320.
[35]- المصدر نفسه، ص 15.

[36]- المصدر نفسه، ص 186.
[37]- المصدر السابق، ص222ص225.
[38]- المصدر نفسه، ص232.
[39]- المصدر نفسه، ص237.
[40]- المصدر السابق، ص251ص252.
[41]- المصدر نفسه، ص285ص286.
[42]- المصدر نفسه، ص286.
[43]- المصدر نفسه، ص279.
[44]-المصدر السابق، ص309.
[45]- المصدر نفسه، ص309.
[46]- المصدر نفسه، ص321.
[47]- المصدر نفسه، ص322.
[48]- المصدر نفسه، غلاف الرواية.
[49]- محمد القاضي، الرواية والتاريخ"دراسة في تخييل المرجعي"، ص23.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن خلدون، (2010)، مقدمة، دار ابن الجوزي للطباعة والنشر والتوزيع،(القاهرة).
2-أحمد خيري العمري،(2019)، كيسماس، عصير الكتب، (بيروت)،
3-أحمد يوسف، الشرط التاريخي وايحاءات الغيرية في رواية الأمير، مجلة التواصل، جامعة باجي مختار (عنابة)، العدد29، ديسمبر 2011.
4- آمنة بلعلى،(1433ه)، الرواية الجزائرية بين تخيل التاريخ وتأويله، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الخامس،(السعودية).
5- بول ريكور،(2006)، الزمان والسرد، الجزء الثالث، تر فلاح رحيم وسعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة،(بيروت).
6 -بول ريكور، (2009)، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة، (بيروت).
7 -جورج لوكاتش،(1978)، الرواية التاريخية، تر صالح جواد كاظم، دار الطليعة، (بيروت).
8- رفيف رضا صيداوي،(2008)، الرواية العربية بين الواقع والمتخيل، دار الفارابي، (بيروت).
9-عبد الله إبراهيم، (2011)، التخيل التاريخي"السرد والإمبراطورية والتجربة الإستعمارية، دار الفارس للنشر والتوزيع، (الأردن).
10- عبد السلام أقلمون، (2010)، الرواية والتاريخ"سلطان الحكاية وحكاية السلطان"، دار الكتاب الجديدة المتحدة، (بيروت)،
11- محمد القاضي، (2008)، الرواية والتاريخ"دراسة في تخييل المرجعي"، دار المعرفة للنشر والتوزيع، (تونس).
12-ميلان كونديرا، (2006)، الستارة، تر معن عاقل، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق).